التجلي الآخر للتاريخ السياسي الجزائري غداة الاستقلال
قراءة في رواية أصابع لوليتا لواسيني الأعرج.

الدكتورة: هنية جوادي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة– الجزائر

ملخـــــص:

لم تقف الرواية الجزائرية في اشتغالها على التاريخ عند موضوع الثورة الكبرى، وإنما التفتت إلى موضوعات أخرى لها دورها البارز في رسم صورة المشهد السياسي الجزائري غداة الاستقلال، من بين هذه الموضوعات، إشكالية الشرعية التاريخية (الثورية) التي كرست هيمنة المؤسسة العسكرية على البلاد، بعد أن نصبت هذه الأخيرة نفسها مدافعا شرعيا ووحيدا عن مصالح الأمة الجزائرية، وكان لها ذلك إثر إعلانها التصحيح الثوري أو الانقلاب العسكري على السلطة الحاكمة آنذاك.

تتصدى رواية" أصابع لوليتا" إذا لانقلاب العقيد هواري بومدين على الرئيس أحمد بن بلة وتحاول الخوض في انزلاقات سلطة الاستقلال، وفي تجاوزاتها التي ظلت إلى وقت قريب مناطق ظل في التاريخ السياسي الجزائري، غير قابلة للمراجعة أو النقد.

ومن هنا فإن الرواية لا تستند في قراءتها للتاريخ على الرواية الرسمية، وإنما تتكئ– على غرار– روايات الكاتب الأخرى على الذاكرة الشعبية وعلى التاريخ الشفوي لأهل مدينة مارينا الذي يرويه بطل الرواية يونس مارنا أحد أبناء هذه المدينة.

ومما سبق، تحاول هذه الدراسة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ✓ هل استطاعت رواية أصابع لوليتا أن تلقي القبض على التاريخي وما مدى التقارب والتباعد بينها وبين التاريخ؟.
- ✓ ما الأبعاد والدلالات الجديدة التي تكشف عنها الرواية في استلهامها للتاريخ؟
- ✓ ما مدى نجاح الرواية في توظيفها لشخصية المثقف– كحامل للتاريخ– في إعادة النظر في التاريخي، وفي التماس وعي جديد به، يفضح ممارساته، ويشكك في قداسته، ويلمح إلى أبعاده المفقودة.

لكن قبل التطرق لتجليات التاريخ في رواية" أصابع لوليتا"، حري بنا أن نشير بإيجاز إلى المرجع التاريخي الواقعي الذي استلهمته الرواية.

1. المرجع التاريخي للرواية أو الواقع المتخيل:

تتصدى رواية" أصابع لوليتا" إلى موضوع على قدر كبير، من الحساسية إذ إنه يتصل بالشرعية الثورية وبدواليب السلطة وصناعة القرار السياسي في جزائر الاستقلال، وذلك من خلال اشتغالها على شخصية الرئيس أحمد بن بلة واستحضارها للانقلاب العسكري الذي قاده العقيد هواري بومدين صبيحة 19 جوان 1965 للإطاحة ببن بلة كزعامة سياسية.

جاءت هذه الحركة التي تعرف بالتصحيح الثوري- حسب ما روجت له سلطة الانقلاب- من" واقع الصراعات داخل القيادة والمجتمع وحسما لها في نفس الوقت"[1]، وقد قدمت السلطة الجديدة مجموعة من المبررات بهدف تكريس شرعيتها، وخلق استعداد شعبي لتقبل الحدث والسياسة الجديدة معا.

من المبررات التي أعلنها مجلس الثورة يمكن الإشارة إلى المبررات الآتية[2]:

- ✓ الحيلولة دون تكوين حزب طليعي يضم كل المناضلين من أجل بناء الجزائر المستقلة الجديدة على أساس اشتراكي...
- ✓ إبعاد وتصفية العناصر النضالية التي أسهمت إيجابيا في الثورة وتمكين العناصر الانتهازية وغير الثورية من مراكز السلطة..
- ✓ إهدار الحريات وتصفية بعض العناصر الثورية.
- ✓ الاستئثار بالحكم والتحول عن القيادة الجامعية إلى التسلط الفردي.
- ✓ فشل السياسة الاقتصادية وبخاصة النشاط الزراعي..

هكذا قدم التصحيح الثوري على أنه" ممارسة ثورية لمسؤولية الجيش من قبل الشعب"[3]، وقد جاءت المبررات المذكورة سابقا لإيهام الرأي العام الوطني والعالمي بمشروعية هذا الانقلاب وبغض النظر عن فحوى هذه المبررات، فإن الوجه الآخر لهذه الحركة ما هو إلا استمرار لسياسة العنف والإقصاء التي عرفتها الثورة التحريرية المسلحة.

وبالنسبة للسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الدراسة هو كيف تقرأ رواية" أصابع لوليتا" هذا التاريخ أو بتعبير أدق ما موقف يونس مارينا- المثقف اليساري- من أزمة

السلطة في الجزائر وما نمط الوعي التاريخي الذي يمثله وهل من أثر لهذا الوعي على مسار حياته؟ وهي الاسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في العنصر الموالي.

فاعلية المثقف أو الرؤية النقدية للتاريخ:

تحسن الإشارة بادئ ذي بدء إلى أن المتأمل في روايات الكاتب واسيني الأعرج يلحظ اهتمامه الشديد بتوظيف شخصية المثقف، شخصية محورية تطرح من خلالها قضايا ومشكلات فكرية واجتماعية وأيضا فنية.

وعلى الرغم من حضورها المأزوم والانهزامي– في بعض الروايات على غرار سيدة المقام، إلا أنها تظل شخصية مركزية على درجه كبيرة من الوعي بالعالم وبقضايا العصر مثلما عليه أمرها في الواقع الحي، فأبطال واسيني غالبا ما يكونون فنانين أو جامعيين أو كتابا أو صحافيين، يصدرون عن نزوع تحرري.

تمتص شخصية المثقف في رواية" أصابع لوليتا" تناقضات الواقع وصراعاته[4]، وتتمثلها في سلوكاتها وحالاتها النفسية وفي مواقفها من الراهن وأيضا من الماضي وملابسات التاريخ، فبطلها مثقف يساري ينفذ في كتاباته الصحفية فالروائية إلى مواطن الظل في التاريخ السياسي الوطني غداة الاستقلال.

تمثل أصابع لوليتا مأساة تخييلية تنسج خيوطها من الماضي التاريخي الذي يلقي بظلاله على الذات الساردة ويهيمن على مجريات الأحداث في الرواية.

يستحضر يونس مارينا بطل الرواية المطارد من طرف السلطة السياسية الحاكمة في الجزائر، انقلاب بومدين على الرئيس بابانا، فيعيد إنتاج هذه اللحظة التاريخية الحاسمة.

" كان عمر البلاد المستقلة حديثا ثلاث سنوات. صيف سنة 1965 بدأ مبكرا وحارا تذكر أنه قرأ في كتاب ما قبل أن يكتب مقالته التي شردته عبر مدن الدنيا، أن البلاد التي تفتح عهدها بانقلاب، تفتح أيضا شهية القتلة والمغامرين والساسة المأجورين، تبني في أحسن الأحوال، وعلى أمد مرئي عشا للجوع والقتلة.."[5].

يبرز هذا المقطع هشاشة الوحدة الوطنية وعمق الصراعات والشروخات التي كانت تعيشها جزائر الاستقلال وانتهت بها إلى انقلاب 19 جوان 1965 الذي مكن المؤسسة العسكرية من بسط هيمنتها المطلقة على جميع مؤسسات الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

يقف يونس مارينا موقفا رافضا لهذه الحركة الانقلابية على غرار بعض المثقفين اليساريين الذين كانوا يجتمعون في مقهى النجمة.

" لم يجد يونس مارينا أي مبرر مقنع ليغفر للعقيد جريمته وانقلابه العسكري ضد الرئيس بابانا[6]، كان عليه أن ينتظر سنوات عديدة، كي يبحث له عن مبررات مقنعة لهذه الحركة الانقلابية فقد اعتقد البطل مثل غيره من أبناء مدينة مارينا" أن الدبابات التي نزلت في صباح 19 يونيو 1965 وأحاطت بالملعب لم تكن إلا مشهدا طارئا الهدف من ورائه تصوير فيلم عن الثورة التي لم يمر عن انتهائها إلا ثلاث سنوات"[7].

وعندما أخبر بجدية الانقلاب لم يصدق ذلك ولكن اتضح كل شيء في المساء عندما" صعد العقيد ليعلن التصحيح الثوري"[8].

لم يفكر البطل مليا فقد ألفى نفسه فجأة صحفيا يكتب مقالة عن رئيس لاشيء يجمع بينهما إلا كونه كان صديق والده في أيام الثورة وأنه كان ابن مدينته مارينا"[9].

ندد البطل" يونس مارينا" بانقلاب العسكر على الشرعية وعبر عن مواقفه المناهضة للاستيلاء على السلطة في مقالاته التي أصبح ينشرها في جريدة يسارية سرية تعرف بـــ: معذبوا الأرض، تحت اسم مستعار، كانت الحروف الأولى منه تشير إلى اسم الرئيس أحمد بن بلة(أ. ب)، وقد ضن القراء و"الكثير من المعارضين للانقلاب ورواد مقهى النجمة الذين يأتي أغلبهم من مصنع الخزف والآجر أنه اسم لامرأة... تكتب عنه خوفا من الانقلابيين[10].

ركز البطل في مقالاته عن معاناة الرئيس أحمد بن بلة في سجنه الانفرادي وكيف كان يتعامل معه الانقلابيون و" أكد في مقالته أنهم يريدون قتله في صمت وعزلته"[11]. ويذهب إلى أن للعسكر طرقهم الخاصة في القضاء على خصومهم:" للعقداء سياسة غربية يأخذون الشخص ثم يسكتون عنه مثلما يفعل الموت حتى ينساه الناس وبعدها يفعلون ما يشاؤون به.."[12].

ويمعن البطل في كشف الأبعاد الإنسانية المفقودة في التعامل مع الرئيس بن بلة، فقد جاء في مقالته الأخيرة التي خلفت صدى طيبا لدى كثير من القراء.

" أنه رأى الرئيس بابانا في مكان معزول لم يوضع فيه حتى القتله، لكن هذا الأخير كان ذكيا، فقد حارب الظلمة والعزلة والخوف بطريقته الخاصة"[13].

يمعن السارد في تصوير قساوة السجن وجبروت السجانين وضراوة الحرب النفسية التي يشنونها على الرئيس بن بلة، وأدت إلى تدهور وضعه الصحي وحالته النفسية.

" أصيب الرئيس بابانا بكآبة طويلة دفعت به إلى التفكير في أسهل وأقسى الحلول: الانتحار، مرض، لم يتجرأ على أن يقول للطبيب عن سبب آلامه وكآبته"[14].

وهذه الوضعية التي أضحى عليها الرئيس، جعلته محل شفقة حراسه من الجنود، مثلما يتجلى ذلك في الحوار الآتي:

– شفت؟ الرايس بابانا راح فيها.. أعتقد أن وصفة العزلة نجحت...

– هذا هو الرايس بابانا، أكاد لا أصدق؟ لقد نحف كثيرا والله يحزنني؟ لا يمكن أن يفعل به هذا، الأفضل أن يقتل إذا كان قد أوصل البلاد إلى الخراب، أو اتهم بالعمالة، أو يطلق سراحه إذا لم يفعل ما يؤذي البلاد والعباد.

– بيني وبينك التهمة غير واضحة، خلينا.. كانوا حابين يقلعوه قلعوه..."[15].

لم يتوان يونس مارينا في الكتابة عن معاناة الرئيس في سجنه وقد امتدت كتاباته التي كان يجنح فيها بخياله إلى حدود بعيدة: إلى طفولة الرئيس ورحلة نضاله، وعلاقاته، فـــ" مارينا مدينته ومدينة الرايس بابانا المشتركة، وفرت له مادة خصبة عن طفولة الرئيس وحياته وصداقاته ونضاله وسجنه"[16].

يعتمد مارينا في كتاباته عن السيرة الذاتية للرئيس على ما يسمعه من أهل مدينة مارينا ومن الناس الذين عايشوه، وأيضا على ما كانت تكتبه الجرائد السرية التي كان يطلع عليها من حين لآخر.

انغمس البطل في سيرة الرئيس وكان كلما عجز كتب عن نفسه وقد أفصح السارد عن هذا التماهي في قوله:" روى طفولة الرئيس وكان كلما عجز عوضها بطفولته هو، فكر طويلا في كذبته ولكنه سرعان ما استكان بحريته مادام لم يتلق أية ملاحظة"[17].

يقر السارد أن ما يحكيه البطل حول سيرة الرئيس بن بلة ليس بالتاريخ المطابق للواقع، وأن" كل ما كان يقوله ليس شرطا أن يكون هو الحقيقة"[18]، فالرواية ليست ملزمة في اشتغالها على التاريخ بأن تروي تاريخا مطابقا للتاريخ(الموضوعي)، وإنما تحاول دوما استغلال هامش الحرية المتاح لها وتخلق لنفسها فضاءات تخييلية جديدة تشكل نوعا من التعالي أو التجاوز للتاريخ.

لاقت هذه الكتابات صدى طيبا لدى كثير من القراء وجعلتهم يتساءلون بشغف عن هوية الكاتب ويترقبون صدور الجريدة بشغف كبير.

" خليه... مليح.... سيعريهم وسنعرف على الأقل سيرة الرئيس بابانا الذي لم يكن سيئا إلى هذا الحد، لن يجرؤوا على قتله بعدما فضحوا نهائيا، وإلا سيشكل ذلك فضيحة دولية تسحب منهم ما تبقى من شرعية ثورية..."[19].

ومما سبق تقدم الرواية نفسها تاريخا مضادا للتاريخ الرسمي وبتسليطها الضوء على معاناة الرئيس بن بلة في سجنه، تكون قد أصرت على إعادة النظر في المشهد السياسي الجزائري غداة الاستقلال وألحت على طرح السؤال الآتي بأي حق يتم التعامل مع الزعيم بن بلة بهذا الأسلوب اللا إنساني؟؟

وتجد الرواية مشروعية طرح هذا التساؤل في السجل التاريخي للرئيس بن بلة الحافل بالتضحيات والبطولات في مواجهة المستعمر.

أدت هذه الكتابات المناهضة للانقلاب إلى اضطهاد البطل على غرار كثير من الشيوعيين، وقد استطاع الفرار إلى مرسيليا، ليبدأ من هناك رحلة كفاح جديدة، ولكن هذه المرة كروائي ملاحق من طرف الجماعات الإرهابية.

الهوامـــش:

1. **لطفي الخولي:** عن الثورة، في الثورة وبالثورة(حوار مع بومدين)، دار القضايا بيروت، لبنان، د.ط، 1985، ص 70.

- **مجلس الثورة:** مثل بعد الانقلاب الهيئة العليا بعد أن كان حزب جبهة التحرير الوطني الهيئة السياسية العليا في البلاد.

2. ينظر المرجع نفسه، ص 90، ص 91.
3. المرجع نفسه، ص 95.

- ينظر سيدة المقام، دار الفضاء الحر، الجزائر، ط2، ص 283.

4. **عبد الله شطاح:** نرجسية بلا ضفاف(التخييل الذاتي في أدب واسيني الأعرج)،مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2012، ص 38.
5. **واسيني الأعرج:** أصابع لوليتا، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2011، ص 84.
6. المصدر نفسه، ص نفسها.

7. المصدر نفسه، ص نفسها.
8. المصدر نفسه، ص 85.
9. المصدر نفسه، ص نفسها.
10. المصدر نفسه، ص 91.
11. المصدر نفسه، ص نفسها.
12. المصدر نفسه، ص 92.
13. المصدر نفسه، ص نفسها.
14. المصدر نفسه، ص 96.
15. المصدر نفسه، ص نفسها.
16. المصدر نفسه، ص 89.
17. المصدر نفسه، ص نفسها.
18. المصدر نفسه، ص نفسها.
19. المصدر نفسه، ص 102.